العرب
الأربعاء 2020/03/25
السنة 42 العدد 11657

الحرب ضد كورونا تدمر الاقتصاد.. لا بد من مقايضة صعبة

علي قاسم
كاتب سوري مقيم في تونس

لماذا تُشنّ الحروب عادة؟ لو وجهنا هذا السؤال إلى عينة عشوائية من البشر لكان جواب غالبية المستجوبين، أن الحروب تشن لأسباب اقتصادية. عامة الناس قد يستخدمون عبارة "نهب ثروات الشعوب". وحدها الحرب ضد وباء كورونا عكست المعادلة، مضحّية بالاقتصاد حماية لحياة البشر. فهل يقبل رجال المال والسياسة بذلك؟

استخدم البشر مبررات عديدة لشن الحروب، وغالبا ما كانت المبررات تخفي وراءها أسبابا اقتصادية، بعضها يبدو لنا اليوم غاية في الغرابة؛ اقتتل الناس في ما بينهم من أجل السيطرة على مصادر الماء وعلى المراعي، واقتتلوا في ما بينهم على النساء، في وقت كانت فيه المجتمعات تنظر إلى المرأة بوصفها سلعة يمتلكها الرجل.

في الحرب ضد فايروس كورونا تجد الحكومات نفسها مضطرة للتضحية بالاقتصاد من أجل إنقاذ البشر. وعندما أبدى رئيس الوزراء البريطاني، بوريس جونسون، حرصه على إنقاذ الاقتصاد، انتفضت أوروبا بوجهه

وعندما تعلق شن الحروب بمبررات عقائدية، لم يكن ذلك سوى ما يظهر على السطح، أما ما يبطن في الداخل فهو مختلف، ويتعلق دائما بالجانب المادي.

قد تُبرر الحروب وتذهب قلة للاقتتال بدوافع عقائدية، ولكن غالبية المحاربين يذهبون للقتال طمعا في مكاسب مادية، حدث ذلك في الحروب الصليبية، وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية، إلا أن الشعارات الكبيرة، إن هي حجبت الدوافع الحقيقية بعض الوقت، فإنها لا تحجب الحقيقة كل الوقت.

الحروب الصليبية، التي بدأها البابا أوربان الثاني، وبررت بتطبيق "إرادة الرب"، كان وراءها قانون الإرث المطبق في أوروبا، وبسببه نشأت طبقة من النبلاء "المعدمين"، ورأى الكثير من هؤلاء فرصته في الحملات الصليبية، للحصول على أراض في الشرق. ولا ننسى أيضا رغبة المدن الساحلية الأوروبية في تحقيق مكاسب تجارية نظيرا لنقل المحاربين على سفنها.

الحرب العالمية الأولى التي يقال إن سببها حادثة اغتيال وليّ عهد النّمسا، عام 1914، كان أساسها نزاعات بين الدّول الكبرى، حيث أدى النصر الذي حققته ألمانيا في الحرب البروسية الفرنسية إلى ظهور ألمانيا الموحدة كقوة مهيمنة في القارة، الأمر الذي رأت فيه بريطانيا تهديدا لمصالحها.

يمكن أن يعدد الباحث أكثر من 10 أسباب لاندلاع الحرب العالمية الثانية، جميعها يتمحور حول الدوافع الاقتصادية، ومن أبرزها فرض الحلفاء على الدول المنهزمة في الحرب العالمية الأولى، وخصوصا ألمانيا، معاهدات مجحفة، إضافة إلى الأزمة الاقتصادية عام 1929.

مهما كان الأمر، سيتفق معظمنا على أن عصر الاكتشافات الكبرى وما نجم عنها من مذابح، وعصر الإمبراطوريات والاستعمار الحديث بمختلف وجوهه ما كان ليحدث لولا الدوافع الاقتصادية.

كل هذه الحروب كلفت الإنسانية عشرات الملايين من الضحايا؛ خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية خسرت البشرية قرابة 100 مليون من البشر.

في الحرب ضد فايروس كورونا انقلبت المعادلة، اليوم تجد الحكومات نفسها مضطرة للتضحية بالاقتصاد من أجل إنقاذ البشر. وعندما أبدى رئيس الوزراء البريطاني، بوريس جونسون، حرصه على إنقاذ الاقتصاد، انتفضت أوروبا بوجهه؛ لست منا إن فعلت هذا، ليتراجع عن قراره.

الرئيس الأميركي دونالد ترامب، يشير إلى أنه قرر تقليص الإغلاق رغم تفاقم تفشي وباء كورونا، حيث تزايدت حالات الإصابة أكثر من 15 مرة منذ الإرشادات التي أعلن عنها في الأسبوع الماضي.

وكان ترامب قد أصدر إرشادات استهدفت إبطاء انتشار المرض خلال 15 يوما، بما في ذلك الحد من السفر غير الضروري، وهو ما أدّى إلى توقف النشاط الاقتصادي في بعض الولايات.

تحذيرات رئيس بلدية نيويورك، بيل دي بلازيو، الأحد، من أن مستشفيات المدينة على بعد أيام من مواجهة أزمة، في حال لم يتمّ الحصول على عدد أكبر من أجهزة التنفس الاصطناعي، خلال الأيام العشرة المقبلة، وإن أناسا، ما كان يجب أن يموتوا، سيلقون حتفهم، لم تثن ترامب عن قراره.

بوصفه سياسيا، وزعيما لأقوى بلد في العالم، يحاول ترامب إعادة الأمور إلى نصابها، فالحرب ضد الوباء أدّت إلى نتائج عكسية، وبدلا من إنقاذ الاقتصاد، فإن الحرب لو طالت، وهو الاحتمال الأكبر، ستؤدي إلى ركود اقتصادي غير مسبوق، وهذا قد يؤدي بدوره إلى تفجر حروب تقليدية ومواجهات بين الدول، تماما مثلما حدث في الماضي.

وعلى الرغم من انتشار الوباء بشكل سريع، واستعداد المستشفيات لموجة من حالات الوفاة المرتبطة بالفايروس، قال الرئيس الأميركي إنه يدرس كيفية إعادة فتح الاقتصاد بعد انتهاء فترة إغلاق مدتها 15 يوما.

ولا يمكن للرئيس الأميركي أن يخفي قلقه، وينسى المعركة الصعبة التي عليه أن يخوضها لإعادة انتخابه، بينما يرى الكثيرين يفقدون وظائفهم، وتعاني أسواق المال والأسهم من هبوط حاد، من تأثير القيود على تعافي الاقتصاد، وهو قلق أبداه خلال أحاديث خاصة مع مساعديه وحلفاء له.

هذه المخاوف دفعت ترامب إلى الإعلان عن عزمه على المضيّ بتقليص الإغلاق في مؤتمر صحافي بالبيت الأبيض قال فيه "الولايات المتحدة ستفتح مرة أخرى وبسرعة أمام النشاط التجاري. لن نسمح أن يتحول ذلك إلى مشكلة مالية تستمر فترة طويلة".

ويرى ترامب أنه من الممكن استئناف النشاط الاقتصادي في الولايات التي بها ما وصفه معدلات بطيئة نسبيا من الإصابة بفايروس كورونا، مشيرا إلى نيراسكا وإيداهو كمثالين، في حين يستمر العمل بالغلق في المناطق الساخنة في ولايات أخرى مثل نيويورك.

وأشار، لاري كودلو، وهو كبير مستشاري ترامب الاقتصاديين إلى احتمال حدوث تغيير في السياسة المتبعة لمواجهة كورونا، خلال مقابلة أجراها في نفس اليوم مع شبكة فوكس نيوز، قائلا إن "الرئيس على صواب. العلاج لا يمكن أن يكون أسوأ من المرض. علينا أن نقوم ببعض المقايضات الصعبة".

عندما يتعلق الأمر باقتصاد البلد، يجب أن يصمت الأطباء، ودون لفّ أو مواربة قال ترامب "لو تُرك الأمر للأطباء سيقولون فلنغلق العالم كله".

فهل ينجح ترامب ويفرض ما عجز عن فرضه بوريس جونسون؟

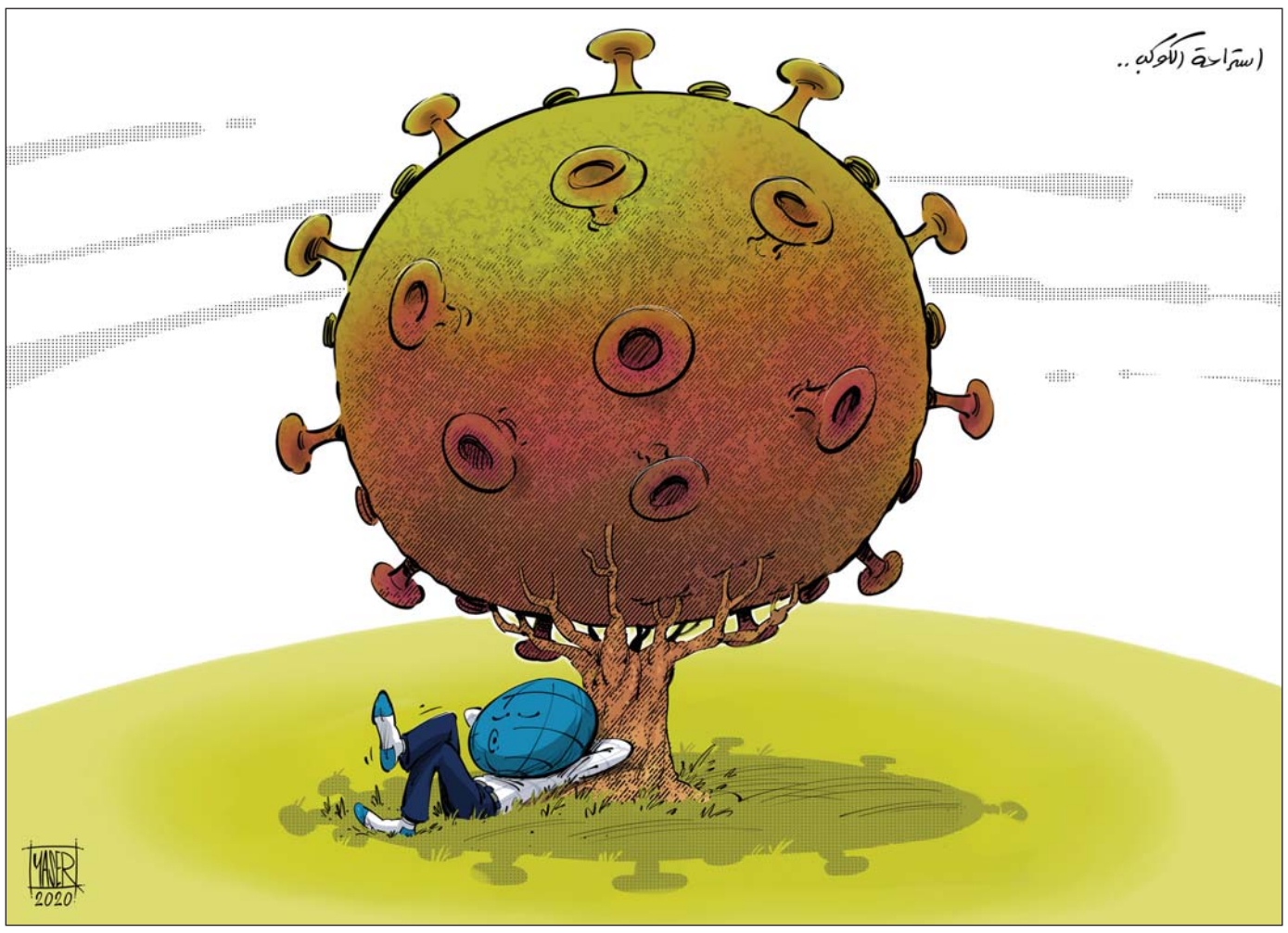

جائحة تضرب الاقتصاد والحق في الحياة

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

مرّ ما يزيد عن الشهر، منذ أن بدأ فايروس كورونا المستجد في التفشي. كانت تسميته بهذا الاسم تكفي وحدها لأن يسابق العالم الريح، لكي يبدأ تدابير الوقاية منه ولكي ينقطع الباحثون إلى محاولة إيجاد لقاح له. فهو عند باحثي علم الأوبئة وفايروساتها "كوفيد- 19" (COVID-19) ولم تنشأ تسميته بـ"كورونا" من قلب الثقافة الصينية، علما بأن الفايروس، سجل أول ظهوره الصارخ، في مدينة ووهان الصينية، وتداول العالم بعد الظهور اسمه ككورونا. وكانت التسمية ناشئة عن الثقافة الإنجليزية، بحكم امتلاك الفايروس هالة شكلية شبيهة بالتاج، تغلفه أو يتدثر بها، ويحتشد في داخله، بأكبر قدر من المجاميع الوراثية، ومن فايروسات الحمض النووي المعروفة من قبل، وتُعدّ المسبّب الثاني للزكام بعد الفايروسات الأنفية!

على الرغم من ذلك، بدا أن العلماء العارفين بأطواره الأولى أو أشكاله السابقة، قد فوجئوا بخواتيمه أو طوره الجديد. وهذا يتطلب إقلاعا بحثيا جديدا قد يُبنى على تجارب ومجاهدات سابقة، وصولا إلى إلحاق الهزيمة بالفايروس. استغلق كورونا عليهم، ما جعل العلماء، كالناس، لا يعرفون متى تنتهي المخاوف منه، ومتى وأين تنتهي هجمته الراهنة في طورها الراهن!

بدا الفايروس كجائحة، في ما يُشار إليه باللغة العربية. والجائحة هي المعادل الموضوعي للمصيبة، والمصائب في العادة أفدح وأعمق. بالتالي كان ما فعله كورونا، يختلف عما سبقوه من الفايروسات التي حاصرها العلماء وهزموها. وظل المذعورون من كورونا، يأملون في أن يُصار إلى محاصرته والإجهاز عليه، مثلما حدث مع فايروسات "ساس سارس" والإنفلونزات المنسوبة إلى البقر والطيور والخنازير، التي جرى الإجهاز عليها بسرعة، بمآثر الباحثين الذين خدموا البشر والاقتصادات والمجتمعات!

يتفق علماء الاقتصاد وباحثو الأوبئة، أن حصة الصين من الأذى، ستكون مديدة على مستويين: الأول، أن المرض سيظل كامنا لفترة طويلة، كالخلايا النائمة، والثاني أن الاقتصاد الصيني الذي ملأ الدنيا وشغل الناس سيشهد ركودا، ويعاني من انتكاسة كبرى جرّاء هذا الفايروس. وبالطبع، يمتدّ الأذى الآن إلى سائر أنحاء العالم. وسيكون الطارئ السلبي على الاقتصاد العالمي، بجريرته، أن إحساسا بالذعر، سوف يغشى الأسواق المالية وربما تتفاقم حرب أسعار البترول أكثر فأكثر. فلا تنفع المباحثات بين الدول المنخرطة في حرب الأسعار، ولن يكون هناك معنى للتصريحات الصينية المتفائلة والأرقام المعلنة. فقد أوشكت المبيعات الصينية في الأسواق العالمية على الانهيار، وتراجعت الصادرات، وتوقف تدفق السياح إلى بكين، وأصبح الألم الاقتصادي موجعا على نطاق عالمي واسع. أما منتجو السلع، فقد تباطأت حركتهم إلى الحد الأدنى، وأغلقت بعض مرافقهم. ومن جانبها، قدرت مجموعة الدول العشرين، أن هذه الجرثومة الصغيرة المتفشية، كلفت اقتصاد العالم حتى الآن تريليون دولار، على مستوى عمليات الإنتاج. ولن يكون مفاجئا بالنسبة للاقتصادات بطيئة النمو حاليا –ولاسيما اليابان والعديد من البلدان الأوروبية– أن تُمنى كالصين، بالتدهور الاقتصادي الحقيقي، الذي يُقدر تراجعه حتى الآن إلى ما فوق الرُبع!

كأنما استشعرت مخيلات الناس، خطورة ما يحدث الآن، واستقرأت الشعوب هذه الكارثة الاقتصادية والمالية والاجتماعية. فاندفعت الأُسر إلى تجريد رفوف محال السلع الأساسية، من معروضاتها، وتخزين الضروريات. أما بعض وسائل الإعلام، فقد جعلت الأمر يبدو كما لو أن العالم، على وشك مواجهة مريرة مع ملك الموت الأسود، الذي أباد البشر في أوروبا بالجملة خلال العصور الوسطى. لكن المتفائلين، يتناسون حجم الوفيات بفعل "الموت الأسود" القديم، وكانت وسيلته وباء الطاعون الذي اجتاح أنحاء أوروبا بين عامي 1347 و1352 وتسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارة الأوروبية وحدها. فالمتفائل اليوم يعود إلى إنفلونزا عام 1918 التي قَتَلتْ بضع مئات من الألوف، وعلى الرغم من ذلك، كانت تلك الكارثة، أقل من عدد الذين قضوا بالنيران، في الحرب العالمية الأولى. ويستذكر هؤلاء المتفائلون، أن الانتعاش الاقتصادي والاجتماعي بعد الحرب، تأخر قليلا لكنه جاء في أواخر عشرينات القرن نفسه.

العلماء يقولون، إن وضع توقعات المتشائمين جانبا، لن يقلل من خطورة ما يفعله كورونا اليوم. صحيح أن ما حدث في مواجهة الأوبئة السابقة، ومن بينها فايروس نقص المناعة ومرض "الإيدز" لم يؤدّ إلى كارثة مديدة وإلى موت يتنقل بسرعة، لكن الصحيح أيضا، أن كورونا قفز قفزات واسعة في عالم الفايروسات، ولا يزال الباحثون يكابدون في معركتهم معه. والمفارقة أن التصريح تلو التصريح، عن اكتشاف لقاح للمرض، يعكس حقيقة عكسية، لأن الأمور، بعد الإعلان، تظل على حالها، وكأن التصريحات كلها جاءت في إطار منافسة بين الدول على مستوى العلاقات العامة وخوض اختبارات استظهار القوة والكفاءة، بين الدول المتقدمة في الأبحاث العلمية وفحوص الأوبئة!

الأوبئة السابقة، التي حوصرت وبقيت، عُرفت في جوهرها، وعرف دواؤها، أما ذو الهالة التي تشبه التاج، وسُمي كورونا، فلا يزال غامضا ولم يُعرف دواؤه، وهو حتى الآن، جائحة كقاطعة الطريق أمام الاقتصاد وصحة البشر ومصائر حياتهم!

الاقتصادات والأسواق العالمية، غير ملومة على تفاؤلها، ولاسيما عندما تتوقع الوصول إلى محطة استراحة قبل نهاية الربيع. فلا يختلف اثنان، على المخاوف من الاندفاع الكاسح للموت، في طريقه إلى التوقف أو تهدئة السرعة، وخاصة لدى الدول الأكثر وقاية وأكثر تطورا في الطبابة، وذات البُنية الصحية الجيدة رأسيا وأفقيا. فما زال العمل يجري على قدم وساق، لاحتواء سريان المرض. وبالتوازي مع هذا تنتظر الاقتصاداتُ موعدَ الانطلاق للتعافي. والحجر الصحي الذي تعلن عنه الدول، وحظر التجوال المجدد زمنيا، يطرح مُددا متفائلة من أسبوعين إلى شهر. ومن بين التوقعات المريحة، لأرباب الاقتصاد الأميركيين، أن التعافي الكامل ربما يبدأ مع بداية النصف الثاني من السنة. فهم يرون أن التخفيضات الأخيرة في أسعار الفائدة التي قام بها الاحتياطي الفيدرالي الأميركي، من شأنها تسريع الزخم في اتجاه التعافي. وكأن الأميركيين، يأملون على أساس مختلف، على اعتبار أن وباء "الإيدز" المُعدي، حُوصر ولم ينته، وترسخت ثقافة تحاشيه، لكنه لا يزال باقيا. ونقطة الضعف في هذا التقدير، أن الأوبئة السابقة، التي حوصرت وظلت باقية، عُرفت في جوهرها، وعرف دواؤها، أما ذو الهالة التي تشبه التاج، وسُمي كورونا، فلا يزال غامضا ولم يُعرف دواؤه، وهو حتى الآن، جائحة كقاطعة الطريق، في الاقتصاد وصحة البشر ومصائر حياتهم!